

من المظاهر العمرانية في اللاذقية في العصر العثماني

ياسر صاري

يوم قاتظ من شهر جمادى الثانية سنة ٩٢٢ هـ - آب سنة ١٥١٦ م
شهد مرج دابق شمال حلب معركة فاصلة في التاريخ الاسلامي .
فقد تمكن السلطان العثماني (سليم بن بيازيد) من دحر
جيش السلطان المملوكي (الأشرف قانصوه الغوري) . وسقط آخر
ملوك الدولة الشركسية قتيلاً في ساحة المعركة ، بعد أن شهد بعينه خيانة
بعض قواده وفرار بعضهم الآخر . وأصبحت الشام مفتوحة أمام جيش ابن
عثمان ، فهرع اليه الناس يستقبلونه استقبال الفاتحين ظناً منهم أن هذه الدولة
الفتية أقدر على احقاق الحق من دولة المماليك . ولكنهم ما لبثوا أن علموا أن
(سليماً) سلطان كباقي السلاطين أكثر منهم قوة وأشد بطشاً ، فكظموا غيظهم
ولسان حالهم يقول :

دعوت على عمرو فمات فسرني فعاشرت اقواماً ندمت على عمرو

كانت اللاذقية يومها تتبع نيابة طرابلس . واقد سميت منطقة اللاذقية (لواء جبلة) حيث
كان يوجد مركز اللواء، ولعل ضريح السلطان (ابراهيم بن آدم) ومسجده أعطى لجبلة هذه
الاهمية .

شهدت اللاذقية شيئاً من الانتعاش قبيل زوال دولة المماليك نظراً لموقعها قرب الحدود
في منطقة التماس مع الممتلكات العثمانية . ولكنها عادت الى الانزواء بعد سيطرة السلطان
سليم الأول على الشام ومصر والحجاز .

وخلال الحكم العثماني شهدت اللاذقية سلسلة من المظاهر الحضارية - بغض النظر

عن تقييم هذه المظاهر - استدعتها ظروف اقتصادية وسياسية محلية وعامة . وسوف أذكر ما وقع تحت يدي من أبنية تعود الى تلك الفترة لتكون شاهداً بين يدي الباحثين والمؤرخين .

□ الدار العلائية :

تقع هذه الدار في منطقة البازار السوق المركزية للبلد (ساحة أوغاريت حالياً) . وكانت منطقة البازار يومها ساحة تناثرت فيها الأعمدة والأحجار الأثرية التي تعود الى الزمن الروماني .

لم يبق من الدار العلائية الا الواجهة الرئيسية المؤلفة من باب يعلوه قوس أصفر من نصف دائرة ، فوقه لوحة رخامية ، نقش عليها البيتان التاليان :

دار يدور بها السرور على السنين بدأ بإنشائها الأمير علاء الدين

سعد السعود مقيم في تأريخها سد فادخلوها بسلام آمين

وقد أشير أسفل ذلك الى سنة البناء بالأرقام : سنة ٩٩٥ هـ - ١٥٨٧ م .

يحتضن الباب من جانبيه نوافذ تزينها نقوش هندسية ونباتية تعكس الفن السلجوقي المتأخر . وقام فوق الطريق الملاصق للواجهة عقود حجرية تشبه أسواق حلب المسقوفة . بينما تذكرنا واجهة البناء بواجهات المدارس السلجوقية في بلدة قونية من أعمال الأناضول . فلنحاول إثارة بعض التساؤلات :

أ - ما الغاية من انشاء الدار العلائية ؟

ان الفرض الأول الذي يتبادر الى الأذهان هو أن هذه الدار بنيت مقرأ إدارياً للأمير علاء الدين وسكناً له ، وهذا ما تبناه الأستاذ جبرائيل سعادة في كتابه (المختصر في تاريخ اللاذقية) مع احتمال أن تكون خاناً (١) .

وثمة فرض جدير بالعناية هو : أن هذه الدار بنيت لتكون تكية للدرأويش المولوية . والذي يجعلنا ننظر الى هذا الفرض بشيء من الجدية الأمور التالية :

- ان التاريخ الشعري أعلى الواجهة يبدأ بهذه العبارة : (دار يدور بها السرور على السنين) والمعروف أن من تقاليد المولوية الدوران في حلقات الذكر ، فيكون هذا المطلع نوعاً من أنواع المحسنات البديعية المسمى (حسن الاستهلال) . ومن المفيد التذكير هنا بأن التكية المولوية التي بنيت في اللاذقية زمن السلطان عبدالعزيز قرب ضريح والده السلطان (ابراهيم بن أدهم) والتي عرفت بين الناس باسم (مسجد أم السلطان) افتتح تأريخها الشعري بمبارة : (دار تدور بها البدور؟) .

- زخرفة البناء تذكرنا بالمساجد والمدارس السلجوقية في قونية البلد الذي ترعرعت فيه تقاليد المولوية وفنونهم .

اعجاب العثمانيين بسلوك المولوية وتعلقهم بها يجعلنا نفترض وجود أمراء أمثال علاء الدين ، يعملون لايجاد مراكز وتكايأ لهم في البلاد التي وقعت تحت سلطانهم .

ب - من الواضح أن وزن البيتين المنقوشين على لوحة التاريخ لا يستقيم والأوزان العروضية مما يجعلنا نفترض أن الناظم أديب شعبي يحاول النظم باللغة الأدبية مقلداً انشعر المدرسي المعترف به وحده أديباً يومئذ . ولعله أديب غير عربي تأثر بطريقة النظم عند الأتراك والفرس ، حيث يتوسعون بالجوازات الشعرية مع الاحتفاظ بالاطر العام للعروض العربي .

ولا بد من الإشارة الى أن استعمال التاريخ الشعري وتاريخ السنين بالأرقام الى جانب ذلك تقاليد انتشرت في البلاد العربية في العصر العثماني . وتمثل هذه اللوحة أول تاريخ شعري في اللاذقية وأول ظهور للأرقام منقوشة على لوحة تاريخية .

ج - لا نعرف شيئاً عن الأمير علاء الدين صاحب البناء ! . واعتماداً على تاريخ هذا البناء فإنه أنشئ زمن السلطان (مراد الثالث) . وقد شهدت بلاد الشام في زمن هذا السلطان اضطرابات كثيرة ، لا سيما منطقة الساحل وجبال لبنان . فلعل علاء الدين أمير أعطيت له صلاحيات خاصة للحد من تلك الاضطرابات رأى أن يجعل اللاذقية مقر قيادته ؟! . ولكن اذا سلمنا أن البناء أنشئ ليكون تكية مولوية فقد يكون الأمير علاء الدين أحد أفراد الأسرة الحاكمة في استانبول أو ممن له صلة بالسراي السلطاني . ولعله لم يسكن اللاذقية بل تبرع بإنشاء البناء تخليداً لذكراه .

□ مسجد أرسلان باشا المطرجي :

في مطلع القرن الثاني عشر الهجري - أواخر القرن السابع عشر الميلادي أسندت ولاية طرابلس الى وال يسمى (أرسلان باشا المطرجي) ، وأصبح أمير اللاذقية أخوه (قبلان باشا) . فرأى أرسلان باشا تحويل مركز اللواء من جبلة الى اللاذقية ، وكانت قد استعالت الى بلدة صغيرة تعيش على هامش الحياة . رافق هذا التحول انعاش البلد . فأنشأ أرسلان باشا مسجداً وحماماً في حي الأشرافية (الشحاذين) مساهمة منه في تطوير البلد، فبدأ العمل في ربيع الأول سنة ١١٠١ هـ - كانون الأول سنة ١٦٨٩ م . كان الحمام أشد فخامة وأعلى قبة . وقد هدم كل من الحمام والمسجد حديثاً، وأعيد بناء المسجد بينما تلاشى الحمام .

وعندما زار الشيخ عبد الغني النابلسي اللاذقية في تلك الفترة شاهد بواذر التطور فيها ، ولاحظ وجود مركز قضاء مستقل ومركز افتاء، وأثنى على أميرها (قبلان باشا)، ولفت انتباهه جدران أبينتها التي تبني بعرض حجر واحد خلافاً لحواضر الشام التي تبني بيوتها بجدار مزدوجة ، فقال (٢) : « وأغرب ما رأينا فيها - يقصد اللاذقية - أنهم يبنون الجدار في عرض حجر واحد فيستقيم البنيان بذلك » .

ومن اللطيف أيضاً أنه أعجب بذوق اللاذقيين في صنع المأكولات والتفنن فيها ، فقال متحدثاً عن مادة حضرها (٣) : « ٠٠٠ مدت المائدة العظيمة وبسطت السفرة الواسعة الجبين

مشملة على أنواع المأكولات والمربيات النفسية، عرضها نحو الخمسة أذرع وطولها نحو العشرين ذراعاً أو أكثر ولم نجد في عمرنا مائدة مثلها ولا قدرها بحيث أنا وجماعتنا لم نقدر على ضبط ما فيها من ألوان » .

وقد شهدت هذه الفترة ظهور حركة ثقافية ، فالف (ابن كتافة) محمد بن ابراهيم اللاذقاني المتوفى سنة ١١٠٠ هـ - ١٦٨٨ م كتابين لغويين هما: (تحفة الأفاضل في الترسل) و (الدر الملتقط في تبيان الغلط) (٤) .

□ ترميم الكنائس (٥) :

وما دمنا في الحديث عن البناء لا بد من ذكر حادثة ترميم الكنائس واعادة بناء بعضها في تلك الفترة .

كان في اللاذقية يومها خمس كنائس هي: مار نقولاوس، اندراوس، مار جاورجيوس، السيدة ، مار سابا . وثمة عرف شفهي يرجع وجود هذه الكنائس الى زمن الفتح العربي ، ومن ثم فهي كنائس معترف بها وداخلة ضمن حماية القانون .

ففي منتصف الليل من يوم ٩ تشرين الثاني سنة ١٧٢٠ م - محرم سنة ١٢٣ هـ سقط الحائط الشمالي لكنيسة (مار نيقولاوس) ، ثم تداعى الحائط الغربي في اليوم التالي . على اثر ذلك طلب المسيحيون من حاكم البلد (مصطفى بك) ابن (أحمد باشا سوار) العمل للحصول على اذن رسمي لترميم الكنائس الموجودة في البلد ، لأن مصيرها سيؤول الى السقوط . جمع (مصطفى بك) رجال الدين المسلمين لاستطلاع رأيهم ، فأفادوا أن لا مانع من ذلك ، فطلب منهم أن يكتبوا الى استانبول كتاباً للحصول على اذن رسمي بذلك ، وسيكون كتابهم اشارة الى عدم وجود مانع يحول دون ترميم هذه الكنائس .

أرسل الكتاب الى والي طرابلس أحمد باشا ومن ثم أحيل الى العاصمة استانبول . ولم يصل الاذن من العاصمة حتى يوم السبت ٣٠ كانون الأول سنة ١٧٢١ م - ربيع الاول سنة ١١٣٤ هـ ، أي بعد حوالي أربعة عشر شهراً . وبعد اطلاق حكومة الولاية في طرابلس على الاذن قرر مصطفى بك عقد مؤتمر شعبي يوم الجمعة ٥ كانون الثاني، ولكنه عاد وأجّل الموعد بناء على طلب المطران (نيكيفورس القبرصي) لمصادفته عيد الغطاس ، فعقد يوم الأحد الذي يصادف ذكرى القديس يوحنا المعمدان .

ضم المجلس مائة رجل من الوجهاء والمشايع ، منهم المفتي عبدالرحمن أفندي والقاضي خليل أفندي ، الى جانب المطران وكل من الخوارنة : الياس عرنوق وموسى الكيس ونقولا الحبشي وموسى كريس وسليمان راعي كنيسة السيدة ، ومن الأعيان: جرجس لطف الله وبشارة موسى وسلامة الخريان وعبدالله الرشيدى المقدسي . وبعد قراءة فرمان التفت مصطفى بك الى المشايخ لأعطائهم رأيهم النهائي فأجاب الجميع بالموافقة . عندها التفت الى المطران قائلاً : بإمكانكم أن تباشروا العمل . . . ولفت انتباهه الى وجوب ارسال رجل صباح اليوم التالي الى دار القضاء للحصول على اذن خطي ، ليكون وثيقة بيدهم لمنع أي معترض .

في اليوم التالي بوشر العمل ، ووجد من المصلحة هدم بعض الكنائس تماماً ثم إعادة بنائها ، فشرعوا بذلك ، وارسلوا رجلاً الى القاضي للحصول على وثيقة خطية ، لكنه امتنع عن اعطاء الوثيقة محتجاً بان الفرمان انما سمح بترميم الكنائس وليس بهدمها واعادة بنائها . .

روجع المفتي لأخذ رأيه فأعطى فتوى تشير الى أن الترميم يعني إعادة البناء اذا كان البناء شبه متداع . ولكن القاضي اصر على موقفه وكان تركياً لا يفهم اللغة المحكية ، بل فاته بعض عبارات الفتوى ، فطلب الاجتماع بالمفتي حيث دار بينهما حوار طويل خرج القاضي منه نصف مقتنع ، الا أنه أعطى الاذن استناداً الى فتوى المفتي .

دام العمل عشرين يوماً ، وشارك فيه ستة عشر معلماً معمارياً يعاونهم مائة وستون عاملاً توزعوا الى ست عشرة مجموعة . وقد استأثرت كنيسة مار نيقولاوس - وكانت الكاتدرائية - بالقسم الأكبر فعمل فيهما في وقت واحد عشرة معلمين مع مائة عامل . لقد حاول بعض القضايات معاكسة المشرفين على العمل لكن البخشيش كان كفيلاً باسكاتهم . ومن الجدير بالذكر أن الكرسي الجميل الموجود في كنيسة مار نقولا يعود الى تلك الفترة ، وقد قام الأستاذ جبرائيل سعادة بدراسته وتصويره .

□ المسجد السلیماني الجديد :

بعد حادثة ترميم الكنائس بخمس سنوات وفي سنة ١١٣٩ هـ - ١٧٢٦ م شرع والي طرابلس سليمان باشا العظم ببناء المسجد الجديد الذي كان جديداً منذ قرنين ونصف .

يقع هذا المسجد في مركز البلد الى الشرق من الدار العلائية ، حائطه الجنوبي مواز للشارع الممتد من المتحف (خان الدخان) الى الثكنة الابراهيمية . ويشغل مع ملحقاته مساحة قدرها خمسة دنمات .

للمسجد ثلاثة أبواب :

الباب الجنوبي : وهو الباب الرئيسي المتصل بالشارع ، ويتألف من دهليز طوله أربعة أمتار تقوم على جانبيه مساطب حجرية ، وتعلوه من الجهة الخارجية نقوش تذكرنا بنقوش خان العظم في دمشق . ينتهي الدهليز بباب المسجد الذي تعلوه لوحة رخامية نقش عليها :

باوامر الباشا سليمان اللبيب هو الحسيب

باللاذقية مسجداً أنشاه فيها مستجيب

صل فيه واجتهد أرخ أقم باب مسجداً له فتح قريب

١١٣٩

وعلى يمين المدخل سبيل رخامي عليه شبك حديدي ، تعلوه زخارف تحاكي زخارف المدخل . وثمة سبيل آخر عار عن الزخرفة يقوم في الجانب الآخر من المسجد .

الباب الغربي : يتصل بالصحن مباشرة ، تكتنفه مصطبتان حجريتان صغيرتان . وقد بني بانحراف عن حائط المسجد ليكون في مستوى دائرة وسط السماء ، بحيث تستتر المصطبة الشمالية بظل المصطبة الجنوبية عند انتصاف النهار تماماً ، فيشكل مزولة تحدد وقت الظهر من كل يوم ، حاول المهندس أن يخفف من هذا الانحراف بلمسة فنية ظهرت على شكل مسند مثلث الشكل .

الباب الشمالي : يماثل الباب الغربي في شكل البناء ، إلا أنه خال من الزخرفة . ولم يدرك المهندس المشرف اليوم على أعمال الطرق سبب الانحراف فيه فهدمه ليستقيم مع الجدار .
حرم الصلاة :

يقع حرم الصلاة في الجهة الجنوبية ، تطل نوافذه على الشارع العام . يبلغ عرض حائطه أكثر من مترين . يتألف سقفه من تسع قباب ، تتوضع في ثلاثة صفوف ، تستند إلى الجدران من الجهة الخارجية وعلى أربعة أعمدة تحيط بالقبة المركزية من الداخل . الأعمدة بتيجانها الرخامية أخذت من الآثار التي تمتلئ بها اللاذقية .

بني المحراب من الرخام الملون المتداخل ، والمنبر من رخام أبيض ، نقش أعلى مدخله بخط الثلث البيت التالي :

ومنبر تعلو الرجال عليه لأمر يعرف واجتناب نواهي

في الشمالي قبالة المحراب مقصورة من خشب مزخرف تستند إلى دعائم حجرية ، فيها نافذة بارزة على شكل شرفة صغيرة مطللة على صحن المسجد لجلوس القراء والمؤذنين للتبليغ .

صحن المسجد ساحة مكشوفة تتوسطها بركة دائرية تعلوها قبة قائمة على ثمانية أعمدة ، في الزاوية الشمالية الغربية انتصبت مذبة رشيقة ترتفع قرابة أربعين متراً ، نقشت على لوحاتها التاريخية :

انظر لحسن منارة متأملاً تجد البناء بها بناء ممعناً

وأجب لداع بالفلاح مؤرخاً حباً باعلان المؤذن معلناً

١١٣٩

باني المسجد والي طرابلس (سليمان باشا العظيم) ابن ابراهيم . يمد سليمان باشا من أشهر أمراء آل العظيم . تحدث عنه البديري الحلاق في يومياته خلال ولايته الثانية على الشام وأثنى عليه . ذكره من المؤرخين : المرادي والقادري والجبرتي وحيدر الشهابي . تولى باشوية طرابلس سنة ١١٣٨ هـ - ١٧٢٥ م قبل بناء جامع بسنة واحدة ، ثم نقل إلى ولاية الشام سنة ١١٣٦ هـ - ١٧٣٣ م وأقام فيها خمس سنين ، نقل بعدها إلى مصر

سنة ١١٥٢ هـ - ١٧٣٩ م إلا أنه لم يتمكن من الإقامة فيها إلا سنة واحدة فقد ساءت علاقته بالمماليك فحاول التخلص منهم لكنه لم يتمكن، وأرسل المماليك يشكونه إلى السلطان، فعزل عن ولاية مصر وولّي الشام ثانية سنة ١١٥٤ هـ - ١٧٤١ م ، وأقام فيها ثلاث سنين . مات في (عكا) خلال حصاره قلعة (طبريا) في صراعه مع (ظاهر العمر) ، قيل : مات مسموماً . .

يعد (سليمان باشا العظيم) من خيرة الحكام في عصره ، استبشر أهل الشام بولايته عليهم خلفاً للعبيدي باشا ، وأنشأ الشيخ عبد الرحمن البهلول قصيدة يؤرخ هذا الحدث بقوله (٦) :

بهذا العام فيهم قد تجلّى مع التاريخ قيوم حفيظ

حاول اصلاح الجند ، وطارّد الأتقياء (الزرباوات) ، وعمل على حماية محمل الحج الشامي . وكان أهم ما قام به في دمشق ترميم نهر القنوات واصلاحه سنة ١١٥٦ هـ - ١٧٤٣ م ، وتحدث الشاعر عبد الرحمن البهلول عن ذلك بقوله (٧) :

| | |
|-----------------------------|--------------------------|
| جزى المولى أمير الشام خيراً | سليمان الزمان ودام دهره |
| بما قد جدّد القنوات صدقا | باحلاص زكا سرّاً وجهراً |
| فيا طوبى له اذ نال أجراً | على مرّ الليالي مستمراً |
| له في كل مكرمة أياد | باحسان علت وهلمّ جرّاً |
| فكم صنعت يداه وجوه برّ | بها أرّخ سبيل الخير أجرى |

١١٥٦

ولكن ذلك لم يمنع من مصادرة أمواله بعد مماته والاساءة الى نسائه وأولاده ، وقد خلفه على الشام ابن أخيه (أسعد باشا العظيم) إلا أنه لم يتمكن بادىء ذي بدء من تحريك ساكن للحد من نكبة أسرة عمه .

بنى (سليمان العظيم) الجامع الجديد في اللاذقية ، وحمّاماً يجاوره يسمى الحمّام الجديد ، وجامعاً صغيراً في حي العوينة يسمى (جامع العوينة) .

ويقول أهل اللاذقية : عندما شرع البناؤون في حفر أساس الجامع الجديد وجدوا أن أرضه تقوم على عتبة مائية ، وتخوفوا من تصدع البناء ، وأشاروا على الباشا بتغيير مكان المسجد . لكنه أصر على المكان متعهداً بتحمل النفقة مهما بلغت ؟! وتطوع أحد المعمارين بالاشراف على البناء متحملاً بدوره المسؤولية ، فجلب أوتاداً من خشب الزيتون وغرسها في الأرض الموحلة ، وأقام بينها حجارة الأساس حتى سواها بالأرض ، ثم تركه سنة للاختبار فلما تبين صلاحه شرع بإنشاء البناء . ويزعمون أنه أنفق على المئذنة وحدها حمولة بغل من الريالات القضية !..

□ جامع الميناء (٨) :

في سنة ١١٦١ هـ - ١٧٤٨ م شرع الرئيس (حمودة بن ابراهيم التونسي) ببناء جامع في الميناء ، فاتمه ونقش على باب حرم الصلاة الأبيات الآتية :

أنشأ ذا الجامع المنيرا الحاج ريس حموده شكورا
فقال أجراً به عظيمًا وحاز فضلاً غدا كبيرا
لحسنه الزاهي ما رأينا في عام تاريخه نظيرا

سنة ١١٦١

ويمتاز هذا المسجد بمحرابه المحاط بنقوش هندسية ونباتية وتعلوه مقرنصات .
للمسجد اربع قباب محمولة على عمود مركزي . وهو المسجد الأثري الوحيد في اللاذقية في الطابق العلوي حيث جعل الطابق الارضي مخازن ومستودعات . ويمتاز هذا المسجد أيضاً بان مدخله أنشئ في قاعدة مئذنته .

المعروف عن الرئيس (حمودة) باني المسجد أنه كان قبطاناً تونسياً تمكن من جمع ثروة من عمله في البحر متنقلاً بين موانئ البحر الأبيض ، فاشترى عقارات باللاذقية وقفها على وجوه الخير . ويبدو أنه كان على صلة بالعلوم الرياضية والفلكية ، فقد عهد الى رجل فلكي اسمه (محمد بن مصطفى) بالاشراف على امر التوقيت في اللاذقية ، وتكفل بدفع راتبه من ريع الوقف ، واشترط أن يدفع راتب لمن يقوم بهذه المهمة من بعده . جاء في وقفيته (٩) :

« وشرط آثابه الله اذا انحلت هذه الوظيفة عن الشيخ محمد المرقوم لا تدفع الا الى رجل عالم عارف بعلم الربع وأن يكون خبيراً بعلم الفلك ويكون مشهوراً بالديانة والصلاح ولا تدفع ولا تسلم هذه الوظيفة الا بعد أن يختبره العلماء ويشهدوا له بالعلم » .

لعل صلة الرئيس (حمودة) بعلم الفلك والربع تعود الى استفادته من ذلك في الملاحة ، ولا يستبعد أن يكون على دراية بالفلك وما يمت اليه بصلة .

□ حمّام العنّابة :

في سنة ١١٥٩ هـ - ١٧٤٦ م أسندت ولاية طرابلس الى (سعد الدين باشا المعظم) ، وكانت ولاية الشام يومها تحت امرة أخيه (أسعد باشا) ، فعمل على تقليد عمه سليمان وأنشأ حمّاماً سنة ١١٦٢ هـ - ١٧٤٩ م سمي حمّام العوافي ، فقد كانت تعلو بابه لوحة رخامية نقش عليها :

يا داخلا حمّامنا متنزها في حفظ مولانا السميع العليم
أنشاه سعدالدين باشا زاده مولاه بالعلياء والجاه العظيم
فيه العوافي والشفّا أرخ لنا بشارك عندي بالنعيم المقيم

١١٦٢

لقر تغير اسم هذا الحمّام فيما بعد ، ليصبح (حمّام العنّابة) نسبة الى السوق المجاورة له . هدم مؤخراً ففقد البلد حمّاماً جميلاً وأثراً لطيفاً .

وسعد الدين العظم وابن اسماعيل العظم . عهد اليه السلطان بولاية طرابلس سنة ١١٦٤ هـ - ١٧٥٠ م ، وأسندت اليه سردارية الجردة ليكون عوناً لأخيه أسعد العظم والي الشام . ثم عهد اليه بولاية حلب مع الاحتفاظ بسردارية الجردة خلافاً للعادة ، لكنه ما لبث أن أعيد الى طرابلس . فلما عزمت الدولة على تشييت آل العظم بعد تعاظم نفوذهم نقلته الى (مرعش) سنة ١١٧٠ هـ - ١٧٥٦ م ، ثم الى (جدة) سنة ١١٧٢ هـ - ١٧٥٨ م ، وهناك عزل وصودرت أمواله وأملاكه (١٠) .

□ جامع البازار :

يتألف جامع البازار اليوم من تسعة عقود ترتكز على أربعة أعمدة تحيط بالمعقد المركزي ، فهو يشبه يهندسته الجامع الجديد السليمانى الا أنه خالٍ من القباب ، ولا زخرفة فيه . واذا استثنينا اللمسات الفنية البسيطة على مدخله الخارجى والمئذنة التي تعلوه فالمسجد عبارة عن قاعة كبيرة تجاور فسحة سماوية صغيرة مرصوفة بالحجارة .

يعود تاريخ البناء الى سنة ١٢٤٠ هـ - ١٨٢٥ م ، وقد نقشت العبارة التالية فوق الباب الأول لحرم الصلاة :

« عليكم بالجماعة فانها لكل خير جمّاعة والعمر في قصره ساعة فاجعلوها طاعة »

١٢٤٠

فوق المباب الثاني :

« اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي ، من سمع النداء ولم يجب فلا صلاة له الا من عذر ، من صلى الصبح حاضراً فهو في دمة الله » .

١٢٤٠

لكن العرف الشفوي يؤكد أن هذا البناء انما أنشئ مكان مسجد قديم يعود الى زمن الفتح العربي ، فهو مكان أول مسجد في البلد وضع أساسه عبادة بن الصامت الأنصاري . . . ليس ثمة وثيقة تاريخية تثبت ذلك . . لكن هناك بعض المظاهر تشير الى أصل العرف الشفوي منها :

— من أسماء هذا المسجد (جامع العشر) ، وهذه اشارة الى أن العشور كانت تجبى فيه ، وهو تخصيص يشير الى عرف قديم يوم كان المسجد يمثل المركز الاداري .

— يعرف هذا المسجد أيضاً باسم (الجامع الصغير) ، وذلك مقارنة بالجامع الكبير الذي بناه الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد استرجاع اللاذقية من الأفرنج . ولكن هذا المسجد اليوم أكبر مساحة من المسجد الكبير ؟! اذا فالتسمية تعكس وضعه يوم أنشأ الظاهر غازي مسجده ، ومن ثم فهو أقدم منه . . .

لقد أشرت من قبل الى أن بناء المسجد بوصفه الحالي يعود الى سنة ١٢٤٠ هـ - ١٨٢٥ م وفق لوحتين تاريخيتين ، ولكن ليس في هاتين اللوحتين اشارة الى اسم الباني ، بل فيهما عبارات دينية تحض على الصلاة وتدعو اليها . ربما أنشئ بجد شعبي دون أن يتبناه حاكم أو ينفق عليه وجيه ثري

وعلى قاعدة المئذنة من الجهة الجنوبية مزولة رخامية ذات ظل منكوس منصوبة في مستوى دائرة أول السموت ، وهي - مع الأسف - خالية من اسم صانعها وتاريخ الصنع

قبالة الجامع من الجهة الغربية حمّام صغير يسمى (حمّام البازار) أو (حمّام العشر) ، بني - على الأرجح - في العصر العثماني ، لكنني لا أعرف شيئاً عن زمن بنائه ومنشئه ؟ .

□ مسجد النور (جامع المغربي) :

بني هذا المسجد سنة ١٢٥١ هـ - ١٨٣٥ م بعد عشر سنين من تجديد جامع البازار ، وقد تحدثت في بحث سابق عن الشيخ (محمد ناصر الدين المغربي) ومسجده الجميل بما يغني عن الاعادة .

□ بيت أنطونيوس مرقص :

يمثل هذا البيت التأثيرات الغربية القادمة عن طريق بيروت و استانبول ، فهو من أوائل البيوت التي صنع سقفها من القرميد ، بني سنة ١٨٦٣ م ، وأشارت لوحة التاريخ الى ذلك بأبيات جاء فيها :

أنطونيوس قد شاد برجاً مرقصاً أرجاؤه حيث الشعاع يموج
فشلت بساحته المكارم أرخوا هذا مقام للضيوف بهيج

١٨٦٣

ويمائل هذا البيت بيت (عبد الحميد عجان) ، لهذا عندما زار (مدحت باشا) اللاذقية سنة ١٨٧٩ م لم يجد المسؤولون أفضل من بيت السيد (أنطونيوس مرقص) ليقيم فيه ، وبيت السيد (عبد الحميد عجان) ليدعى اليه في مأدبة ليخطب فيه مبيناً سياسته .

يعود بناء دار الحكومة القديمة الى مطلع القرن العشرين ، نهض بهذا المشروع المتصرف (شكري باشا) (١١) ، وهي من الناحية المعمارية صورة مصغرة عن الأبنية الحكومية التي أنشئت في البلاد التابعة للدولة العثمانية زمن السلطان عبد الحميد الثاني كالسراي الحميدية في دمشق (وزارة الداخلية) وسراي الولاية في بيروت ، والى تلك الفترة يعود بناء المستشفى القديم قرب المركز الثقافي .

أما خان الدخان (المتحف حالياً) فهو بناء جميل متميز ، لكن الأستاذ جبرائيل سعادة سبق ودرسه دراسة وافية نشرت في مجلة التراث العربي (١٢) .

نشير أخيراً إلى الشكنة الابراهيمية التي بناها (ابراهيم باشا) أثناء سيطرته على بلاد الشام (١٨٣١ - ١٨٤٠) ، فقد هدمت ، وأنشئت على أرضها مدرسة قبالة حديقة أبي تمام .

(ياسر صاري)

□ الحواشي :

- ١ - الأستاذ جبرائيل سعادة - المختصر في تاريخ اللاذقية - ١٩٨٤ - ص (٣٧ - ٣٨) .
- ٢ - الشيخ عبد الغني النابلسي - الرحلة الطرابلسية - مخطوط .
- ٣ - المرجع السابق .
- ٤ - اسماعيل باشا البغدادي - هدية العارفين - استانبول سنة ١٩٥٥ - المجلد الثاني - ص (٣٠٠) .
- ٥ - تحدث الياس صالح بتفصيل عن حادثة ترميم الكنائس في كتابه المخطوط (آثار الحقب في لاذقية العرب) ، حوادث سنة ١٧٢٠ م .
- ٦ - انظر : حوادث دمشق اليومية (يوميات البديري الحلاق) - تحقيق د . احمد عزت عبد الكريم القاهرة ١٩٥٩ - المقدمة ص (٣٤ - ٣٥) .
- ٧ - المرجع السابق - ص (٤١) .
- ٨ - قام بدراسة هذا المسجد دراسة هندسية الطلاب : حسام خدام ، زكريا قلاب ، نوار زريق . بإشراف الدكتور عبد المعطي اسماعيل الغضر - جامعة تشرين اللاذقية .
- ٩ - الدراسة السابقة - ص (٩) .
- ١٠ - انظر : حوادث دمشق اليومية - المقدمة - ص (٣٦) .
- ١١ - رفيق التميمي ومحمد بهجت - ولاية بيروت - مطبعة الاقبال بيروت ١٣٣٥ هـ - ص (٢٨٢) .
- ١٢ - مجلة التراث العربي - دمشق - العدد (الثالث) تشرين الاول ١٩٨٠ ص (١١٥ - ١٣١) .

★ ★ ★